

كتاب عيون الاخبار

تأليف ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري

المجلد الاول (ص ٣٤٤) ، والثاني (ص ٣٧٦) والثالث (ص ٣٥١) والرابع (ص ٣١٥)
 مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٥ - ١٩٣٥ ، قطع ٤ كبير

بقلم الاب توتل اليسوعي

عدوا لابن قتيبة ٤٧ كتاباً نسبها اليه . مواضعها العلوم الدينية في القرآن والحديث والفقه ، والادب والشعر واللغة ، والطبعة والاخلاق ، والتاريخ ، وغير ذلك مما يشهد لصاحبه بسمه المعارف وغزارة المادة والكثرة الذي لا يعثره الملل في الجنب والتأليف والتجديد . من جملة تلك الكتب بعضها مطبوع بجزئه او بكامله ، ككتاب الاثرية وادب الكاتب ، والميسر والقدر ، وكتاب فضل العرب على المجمع ، وكتاب المعارف ، وطبقات الشعراء ، وكتاب الامامة والسياسة ، وتأويل مختلف الحديث ، والرحل والمزل ، واللأ واللبن ، وعيون الاخبار الذي تعرض لوصفه . وان هذا الكتاب موسوعة حوت كل ما كان يحتاج اليه في العصر الثالث الهجري ، رجال الحكم والادب للحصول على الثقافة العامة التي لم يكن لهم غنى عنها . وفي ايامهم كانت المكاتب تادرةً والكتب غير متوفرة الا للقليلين ، فاعزها منزلة تلك التي تكفي عن مراجعة غيرها .
 مثل عيون الاخبار .

رصف المؤلف كتابه في مقدمته فقال انه جمع فيه « المتخير من كلام البلغاء وفضن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف » . فيستطيع المطالع ان يأخذ منها ما يروق له ، فيقو ثقافته ، ويتخلص من مساوي الاخلاق ، ويتروض على حسن السلوك ، واجادة الانشاء . فينال طلبه اذا سأل ، ويرد اللوم عنه اذا عوتب الخ . . . وفي الكتاب نصائح للخاصة والعامة ، ومواعظ وارشادات فهو « مثل المائدة ، تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكاليين » او

كالتاموس المتمد عليه في الجواب على كل مسألة من المسائل التي كانت تطرح على متعلمي ذلك العصر في مختلف العلوم .

فكانه خلاصة لمؤلفات ابن قتيبة ، المدينة ، وقد قسمه الى عشرة كتب بمد ما افرد عنه كتب الشراب والمطارف والشعر ، وتأويل الرويا .

والكتب المشرة مواضعها : ١- السلطان ٢- الحرب ٣- السؤدد ٤- الطبائع والاخلاق ٥- العلم ٦- الزهد ٧- الاخوان ٨- الحوائج ٩- الطعام ١٠- النساء .

وكان قد طبع من عيون الاخبار الكتاب الاول في مصر سنة ١٨٨٢م - ١٣٠٠ هـ ، و ١٩٠٧م - ١٣٢٥ هـ . وطبع بروكلمان الكتب الاربعة الاولى طبعة بتمهي الدقة (١٩٠٠ - ١٩٠٨) . على ان الكتاب بكامله لم يظهر الا بين ١٩٢٥ و ١٩٣١ وقد قامت بطبعه دار الكتب المصرية مع سائر الموسوعات العلمية والادبية والتاريخية التي عرفت «مشروع احياء الاداب العربية» وذلك في ظل حماية فؤاد الاول ملك مصر .

اعتمد النشار في طبعته على نسختين ١- نسخة كوبرلي بالاساتنة (رقم ١٣٤٤) واجزاؤها كاملة ، ونسخة بروكلمان في الكتب الاربعة الاولى ، وهذه مأخوذة عن نسخة كوبرلي المذكورة ، وعن نسخة اخرى مقصورة على كتابين ، الاول والثاني ، ومحفوطة في ليننغراد .

ظهر الكتاب باربعة مجلدات ، مطبوعاً طباعاً اتيقاً كما هو مهود في ما تصدره دار الكتب . وقد سبق للشرق وصف مطبوعاتها كالآغاني ، ونهاية الارب وغيرها . والمجلد الرابع من عيون الاخبار مصدر بمقدمة واسعة موقمة باسم السيد احمد زكي الصدي ، رئيس القسم الادبي في الدار ، ترجم فيها الكتاب وصاحبه ، وبعد المقدمة رواميز الصفائح الاولى للمخطوطات الذي طبع عنها كتاب عيون الاخبار ، واخيراً ، في الزيل فهارس لا يقل عددها عن الثمانية فضلاً عن الفصل في الاستدراكات .

لو يؤذن لنا بالاعراب عن رغبة لمثل تلك الموسوعات ، لاشتهدنا لها فهرساً للمواد ، صرتاً على الانجليزية . وليس الامر باليسير نسبة للمجهودات التي بذلت بسخاء في وضع فهارس اهميتها دون اهمية فهرس المواد ، مثلاً فهرس القوافي .

قال ابن قتيبة في المقدمة (١ ، صفحة ٥) :

ان وقت على باب من هذا الكتاب ، ولم تره مشبهاً ، فلا تقضي علينا بالانخال ، حتى تصفح الكتب كلها ، فانه رب معنى يكون له موضوعان وثلاثة مواضع . وان مواد الكتاب الواقعة عناوينها في المقدمة (صفحة ٥ - ٦) اذا رُتبت بالاجدية واشير الى صفحاتها ، لاغت المطالع عن « تصفح الكتاب كله » .

* * *

اخذ مؤرخو الآداب العربية يبحثون على اصلها فيما اقتبسته عن آداب المند وفارس واليونان والسرمان . وان كتاب عيون الاخبار ، الكامل الطبع ، يفضل فهارسه ، واخصها فهرس اسماء الكتب والامكنة والاشخاص ، بسط الطريق لمن يتبع اثار كل مدنية من المدنيات التي اثر في العرب ، مقتناً عليها ، وفاقاً على تطورات نفوذها فينا .

من امثال ما يمكن الدارس استثماره من هذا الكتاب ، ولا بد من يلتفت اليه نظر اساتذة تاريخ الادب العربي ، هو تعليقاته عما اداه للعرب احتكاكهم بالهند ، مثلاً . قلت بالهند ، على سبيل اختيار مادة بين عشرات ، لان ما يقال عنها قد يمكن استنتاجه بالطريقة ذاتها عن بلاد فارس ، ومصر ، وفلسطين ، ولبنان ، وما يقال على المدن والاقطار قد يصح باولى حجة ايضاً في استثمار اثار الاشخاص والقبائل . وهم عشرات . . . وما اني احاول ان اكشف على تأثير المند فينا من موسوعة عيون الاخبار . واعلم ان ابن قتيبة ولد في البلاد الواقعة على منتصف الطريق بين المند وجزيرة العرب . فكان ابوه من مرو ، وهو له في البصرة او في بغداد ، سنة ٨٢٨ م - ٢١٣ هـ ، وقد نشأ بها وتثقف على رجالها ، وتولى القضاء في دينور بالقرب من همدان في فارس ، واتصل بابي الحسن عبيد الله بن خاقان ، وزير الدولة البابية ، واسرة ابن خاقان الوزيرية شهيرة بالكتب التي جمعتها في دارها والملكاء الذين قربتهم اليها^١ ، فتوفرت لابن قتيبة مصادر الدرس والمطالعة والتأليف ، وهو في ايام بلغت الدولة العربية

(١) راجع درس اوانا ميتو على الفتح بن خاقان رزير المتوكل *Rivista degli Studi*

أوج عزها ، فامتدت الى اقاصي الافاق شرقاً وغرباً ، وامتدت من عمالها شتى التعليمات عن البلاد التي فتحتها . فاعنى ان تكون تلك التعليمات عن الهند ، وما هي تأثيراتها في الرب ؟ .

ذكر ابن قتيبة بلاد الهند لا اقل من ١٢ مرة في اسماء الامكنة ، و ٣٩ مرة في اسماء القبائل . فافادنا انها كانت مع الصين والسند عملاً للعراق ، وقد فتحها محمد بن الحكم الثقفي وهو ابن سبع عشرة سنة . وعاينت نظرت الرب اليها ؛ من نباتها : شجر الساج وهو عظيم جداً وخشبه اسود ، وشجر آخر له ورد احمر مكتوب فيه بياض « محمد رسول الله » (كذا) (المجلد الثاني ص ١٠٠ ، ٩٤) ، وشجر الكرمة (١ : ١١ ، ١٣) ؛ ومن الحيوان : الكلب ، والفيل ، والاسد ، والحية ، والكركدن ؛ ومن اشكال وطباع هذه الحيوانات اخذوا استمارات وصفوا بها اخلاق الناس . وانبأ الرب لخلي اهل الهند ولباسهم ، (١ : ١١ ، ٢٢) واستحسنوا فيهم صناعة السيوف (١ : ٩٤ ، ١٨) . واستجلبوا المسك من عندهم (٢ : ٢٨٨ ، ١٧)

واثرت في المرب ، ومن الرب اتصلت بالآداب الفريية الامثال والحكم على اختلاف مطانيها ومبانيها ، وهى خلاصة ما وقف عليه العقل البشري من اختيارات الدهور ، فمرب عنه تعبيراً قليل الكلام كثير المعاني يسمه السامع فيوعيه صدره ، ويراجمه في قلبه ويستحضره عند الحاجة اليه في تدبير امره في شئون الحياة ، سواء كان فرداً من افراد العامة او اميراً في قومه . وقد يجب كتاب الهند النبي بلغ اليها امره . عن قلم ابن قتيبة ان يوتب تلك الامثال والحكم مثثة « او مثناة » او مشفمة باستمارة تقرها للاذهان فكثيراً ما يذكرنا بالرب ابن المتفجع وكليية ودمنة .

وبالاجمال قد يقال عن هذه الامثال والتعاليم انها لا ترمي الى غرض ابعد مما يوجه الانسان لنفسه في هذه الحياة الفانية من راحة وطمانينة وتمتع باطياب الدنيا ، والاتصار على الاعداء ، والتفوق على الاقران ، وممارسة الفضائل الطبيعية التي يؤول امرها الى سعادة الفانية كحسن الجوار والضيافة والحلم ، والكرم والصبر وغيرها . فالصوم يمتدح لان فيه اطالة الاعمار (٣ : ٢١٨ ، ٣)

وقد يُذكر التبطل عرضاً وعلى سبيل الحديث ، فلم تستند الآداب العربية والحضارة العربية على ما ترى ، من كتاب عيون الاخبار ، من المدينة الهندية الافكار والمواظف السامية التي ظهرت في متصوفي الاسلام الوردعين المتجشمين ، المبتهين اجر الآجلة دون الطاجلة .
اليك بعض الشواهد :

— من كتاب السؤدد ، في المهمة والخطار بالنفس (١ : ٢٣١ ، ١٥)

« وفي كتاب الهند : ثلاثة اشياء لا تال الا بارتفاع همه وعظيم خطر : عمل السلطان ، وتجارة البحر ، ومناجزة المدور . وفيه ايضاً : لا ينبغي ان يكون الفاضل من الرجال الا مع الملوك مكرماً او مع النساك متبتلاً ، كالليل لا يحسن ان يرى الا في موضعين : في البرية وحياً او للملك مراكباً . وفيه ايضاً : ذو المهمة ان حط نفسه تآبي الا علواً كالشئ من النار يُصوّجاً صاحبها وتآبي الا ارتقاعاً . »

من كتاب الحرب (١ : ١١١ ، ١١)

« وفرأت في كتاب الهند : لاظفر مع بني ، ولا صحة مع ضم ، ولا ثناء مع كبر ، ولا صداقة مع خب ، ولا شرف مع سوء ادب ، ولا برّ مع شح ، ولا اجتناب محرم مع حرص ، ولا محبة مع زهو ، ولا ولاية حكم مع عدم فقه ، ولا عذر مع اصرار ، ولا سلامة مع روية ، ولا راحة قلب مع حد ، ولا سؤدد مع انتقام ، ولا رئاسة مع غرارة وعجب ، ولا صواب مع ترك المشاورة ، ولا ثبات ملك مع خاؤون وجهالة وزرارة . »

وايضاً في كتاب السؤدد عن كتاب الهند (١ : ٢٤٨ ، ٦)

« ذو المردة يكرم سدماً ، كالاسد يُجاب وان كان رابضاً ، ومن لا مروءة له جان ، وان كان موسراً كالكلب وان طُوق وحلي »

واليك القصة التي وصلت عن الشرق الى لافوتتين الافرنسي فانشأ عليها مثاله على الفلاحة وجرة اللين ، ووردت في مجلتي الادب تحت عنوان الراعي والجرة (القليوبي) ١ : ١٠٢

« ان ناسكاً كان له عمل وسين في جرة ، ففكر يوماً فقال : ابيع الجرة بشرة دراهم ، واشترى خمة اعتر فأولدمن في كل سنة مرتين ؛ ويبلغ التناج في سنين مائتين ، وابتاع بكل اربع بقرة ، واصيب بذراً فأزرع ، وبشي المال في يدي ، فاتخذ المساكن والمييد والاماء والامل ويولد لي ابن فاسبه كذا وآخذه بالادب ، فان هو عصاني ضربت بمصاي رأسه ؛ وكانت في يده عصا ، فرفها حاكياً للضرب ، فاصابت الجرة فانكسرت وانصب الممل والسمن على رأسه . »

وفي كتاب السلطان تعليقات كثيرة عن المبادئ الهندية في الحكم والياسة

وتقدير الممالك وكلها تم عن وجود السلطة في قبضة رجل واحد استأثر بها لنفسه^(١) . فتلقيها العرب كان من العوامل التي ساعدت على انقلاب احوال الحكم في دولتهم . فان السلطة ، في بدء الفتوحات العربية كانت رهينة ارادة افراد يتشاركون فيها اعني بهم الرعايا والقواد من قريش ، وما مضى قرنان على ذلك الا اصبح الحكم في ارادة رجل واحد متبد برأيه شأن الخليفة الرشيد او المنصور . وقد يؤدي التوسع في البحث الى ابد ما توخيناه في هذا المقال من وصف الكتاب . على انه يروقنا ان نلفت نظر القراء الى درس حديث قام به الالماني ريشتر^(٢) في كتاب وضعه على الاخلاق السلطانية ومثالها الاعلى في العصور الاسلامية الاولى . مهتد فيه الى البحث على فلسفة السلطة عند العرب مراجعاً في ذلك بعض ما كتبه ابن المقفع في الادب الكبير وفي كلية ودمنة ، والجاحظ في التاج ، وابن قتيبة في العيون ، وابن عبد ربه في العقد الفريد ، واحمد بن ابي طاهر في كتاب بندان ، مستطرداً من ثم في الكلام على ما اتى العرب من تعاليم اليونان في السياسة . وان غرضه انما هو تتبع مجاري الافكار صموداً الى ينابيعها ، والمعرفة لكل ذي حق حقه في نشأة فكرة السلطان ونظام الملك وآداب السياسة وتطورها . فخصص عدة صفحات في تحليل الكتاب الاول من العيون مقابلاً بينه وبين كتاب التاج وكتاب المقد ، متقباً عن له الانضلية في التأثير في غيره . ومثل هذه المباحث اصبح السيل اليها سهلاً بفضل الطبقات المزيلة بالتهارس شأن طيبة دار الكتب للعيون .

واخيراً نذكر جوزف هوورفيز المسترق الملم في كلية فرنكفورت . باشر نشر ترجمة كتاب العيون الى الانكليزية ، في مجلة الاداب الاسلامية^(٣) المطبوعة في حيدر اباد . لكن النية حالت دونه ودون انجازه عمله . رحمه الله .

(١) راجع المجلد الاول ص ١٨٤، ١٨٥، ١٩١، ١٩٣ الخ . . .

(٢) G. Richter : Studien zur Geschichte der Alteren Arabischen Fürstenspiegel, Leipzig, 1932.

Islamic Culture 1930-31 (٣)